المحاباة ومصدرها الاجتماعى

للأســـتاذ عبد الله حسين

فى يوم صائف من أيام عام ١٩٤٠ كنتُ مع بعض زملائى المحامين فى غرفتهم فى دار محكمة استئناف مصر الأهلية ، وانتظمنا جماعة نعرض لشئون الدنيا العامة والخاصة بشتى فنون الحديث وألوان التخريج والتأويل ، ونرتصد لها بالنقد والتأميل . فبدهنا الزميل المحترم عبد الرحمن الرافعى بك ، وهو من هو فى أمثال هذه المعالجات والبحوث ، بكلام فى المحاباة :

تحدث الزميل مستغرباً متسائلاً : ما بال حكومات مصر قد بُليت ببلية المحاباة ، كأنها أساس من أسس الحكم ، لا يستوى على حال مرضية إذا لم تكن فى حساب الحكام ؟ ثم سأل بعدئذ : أليس هناك علاج لهذه العلة الفاشية ؟

وقد سارعتُ يومئذ إلى الإجابة على هذين السؤالين قائلاً عن السؤال الأول : إن المحاباة ليست خلقاً لحزب بذاته أو بلية ابتلى الله بها عهداً دون عهد أو حكماً دون آخر ؛ بل إنها تستند إلى ما ورثنا من عادات . ذلك أن الأمة هى الصورة الكبرى للأسرة ؛ وما دمنا نعمد فى أسرتنا إلى إيثارها بالغنم والخير ولو كان هذا على حساب أسرة أخرى أو جميع الأسر الأخرى ، فليس لنا أن نشكو ظاهرة المحاباة فى الأسرة الكبرى : الأمة .

إن عاداتنا وأخلاقنا لتقتضينا أن نعنى بشئون أبنائنا وأبناء عمومتنا وخؤولتنا وأصهارنا ، فإذا قام منا سيد أو حاكم ، وزيراً كان أو غير وزير ، اقتضته الشهامة أن يؤثر ابنه على ولد أخيه ، وولد الأخ على ولد العم ، وهذا على من كانت صلته بعيدة . فإذا اطمأن الحاكم أو السيد على الخير قد وصل إلى أحد من هؤلاء على الترتيب والتعاقب ، وكانت هناك فضلة من هذا الخير ، لزمه أن يؤديها إلى الصديق أو المواطن فى القرية ذاتها أو إلى ابن حزبه

أما إذا تغشّى صاحب الكلمة والنفوذ وهم من تلك الأوهام ، أو رجس من تلك الأرجاس ، التى يتعثونها على أسلات الأقلام أو منابر الخطابة والوعظ والدعوة السياسية ، بالنزاهة

ولو نظر القدماء هذه النظرة لأعفونا من أبحاث كان فيها نقد الشعر قائماً على وحدة البيت لا وحدة القصيد ، فكان مثَلهم مَثَل من يعيب الغابة الشجراء ، لأنه عثر فيها على شُجَيرة عجفاء

قصة أدبية

وهذا الكلام ساقته قصة أدبية تلخّصها الأسطر الآتية :

بدا لى أن أقرأ « قصيدة مصر الجديدة » على الدكتور طه حسين ، فاعتذر بالسفر إلى فلسطين . وأردت عرضها على الأستاذ خليل مطران فحدد موعداً ، ولكنى تخلّفتُ عن الموعد ساعة وبضع دقائق ، فانصرف قبل أن يلقانى مع الأسف ، فقد كنت أرجو أن أنتفع بنقده الدقيق . وعند خروجى من مكتب الأستاذ خليل مطران لقيت الأستاذ محمد هاشم عطية فدعوته لسماع القصيدة عساه يعطى رأياً فى تنقيح بعض الأبيات ؛ ثم كان رأيه أن هذه القصيدة يفسدها التنقيح ، فعرفت من جديد أنه ذلك الأديب الفنان

ما هذا الكلام ؟ أترونى أعتذر عما سيقع فى قصيدتى من ضعف كما اعتذر ابن الرومى ؟

هيهات ثم هيهات ! فقصيدتى هى القصيدة ، ولن يستطيع شاعر أن يجارينى فى أى ميدان ؟

راية الشعر يحملها المصريون ، ولن تُنزَع هذه الراية من أيدينا ، ولو سهر ليلُ الإخوان الأعزّاء فى سائر الأقطار العربية

قد تقولون : ما هذا الغرور ؟ وما هذا الادعاء ؟

وأقول إنى سألقى عليكم قصيدة تَلقَفُ ما تأفكون ، وسأقهركم على الإيمان بعبقرية مصر الشعرية فى هذا الزمان

زكى مبارك

التامة والعدالة الحق ، فحدث ما شئتَ عما يصيب هذا الرجل من ألوان التشهير ، فهو — عند ذويه وأصهاره وبنى قريته وبين صُدقائه — الخارج على الأسرة ، المارق من المروءة ، الجاحد للفضل ، المختلس لثقة ناخبيه إن كان منتخوباً لعضوية إحدى الهيئات ، الضعيف الرأى ، الأنانى ، الخائر العزيمة ؛ بل لقد يتمادى الطاعنون فى طعنهم ، فيرمونه بالخيانة لأن من ينكص عن خدمة ذويه وأصدقائه وأسرته ، لا يرجى منه خير لوطنه وأمته . أو بأنه فى حقيقته لم ينحدر من صلب آله وقومه !

فمن منا — مَنْ من المصريين يرضى أن يدرج مع الساقطين فى المروءة والوطنية ؟

فهذه المحاباة — والأمر كما أوضحنا — ليست شيئاً مستغرباً وليست حادثة موقوتة يرجى علاجها إذا ما ولى عهد وخلفه آخر ، أو إذا ما سقط سيد وقام بالأمر بعده سيد آخر ، مهما يختلف مداها سعة وشططاً وعلة وتعليلاً

إنها ليست بحدث الأحداث كما يقول بعض الكاتبين ، وليست بطارئ ظهر فى هذا الزمان

بل إن المحاباة — وهى من خلق الإنسان منذ الخليقة — تقع فى الصدر من أخلاقنا وتستقل بالصميم من عاداتنا

إنما الجديد فيها أننا نهضنا نهضة سياسية جديدة ، فأصبح لنا أحزاب سياسية ذات أنصار وأنصار للأنصار ، وأصبح لنا برلمان ونواب وشيوخ ، ولا بد لمجيء هؤلاء من الناخبين ، ولا سبيل إلى الفوز بالأصوات إلا بخدمة المصوتين أو بذل الوعد لهم بتأديتها

ومن ثم انتقلت المحاباة من ميدان القرية ، حيث يشتد النزاع حول العمديات والشياخات وتقديم أنفار القرعة وحول الميراث وحدود الأطيان وما يجب لها من رى وصرف — إلى الحكومة ، فكان ما شهدنا ونشاهد ، وما من أجله تناول الناقدون ما تناولوا من الإنحاء على المحاباة والمحابين

أما الإجابة على السؤال الثانى ، وهو كيف نعالج هذا الداء ، ونبرأ من هذه العلة — فإن الواجب أن نعمد إلى تقوية الرأى العام ، فإن رأينا العام ضعيف ، أو قل إنه قوى حيناً ، ضعيف أحياناً ...

أعنى بتقوية الرأى العام ، تقوية المعنى الوطنى ، أى أن تقوم تربية النشء على تقديم مصلحة الوطن والدولة على مصالح الأفراد التى تتعارض مع تلك المصلحة

هذه واحدة ؛ وواحدة أخرى علينا أن نبذل ما نستطيع لكى نجعل الانتخابات فى جميع صورها وأن نجعل ألوان التأييد للحكومات والثقة بها بمعزل عن الوظائف والتعيين فيها والترقية إليها ...

وإنى لأقدر فى أسف شديد وألم عميق ، أن أجيالاً قد تمضى قبل أن نستطيع أن نقضى على هذا الداء قضاء تاماً ، وأن كل ما نطمح إليه يجب أن يكون مقصوراً على تخفيف ويلاته ، والحد من مضاعفاته . وفوق كل ذى علم عليم .

عبد الله حسين

إلى هواة المغناطيسية

وإلى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية من شرح طرق وتدريبات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفى تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسى والحصول على دبلوم فى هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصرى بغمرة بمصر وارفق بطلبك ٣٠ مليماً طوابع المصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .